بشير القمري

التّنّين

هو: ها نحن وحدنا ننعم بالحياة. هل تسمعين؟ نحن وحدنا، هل تسمعين؟

هي: أجل. سمعتك وأسمعك دائماً. قلت: إننا وحدنا. وقلت: ننعم بالحياة. أليس كذلك؟

هو: نعم. هو كذلك. لقد قلت بأننا...

هي (تقاطعه): وحدنا. وقلت: ننعم بالحياة. وقلت: هل تسمعين؟ ثم قلت: هل سمعت؟

هو: تسخرين مني؟

هي: أبداً، لكنني أردد على مسامعك ما قلته قبل لحظة.

هو: ماذا قلت؟

هي: ها نحن وحدنا. ننعم بالحياة.

هو: كفى. كفى. كفى.

هي: يا لك من رجل غريب الأطوار!

هو: يا لك من امرأة...

هي (تقاطعه): غريبة الأطوار!

هو: أنت تعاكسينني.

هي: أبداً، أبداً، إنني أحاول أن أسايرك فقط.

هو: أنت منافقة.

هي: من عاشر قوماً أربعين يوماً أصبح منهم.

هو: هذا مثل عربي.

هي: ما دخل العرب هنا؟

هو: أصبحت مثلهم. تتحدّثين وتراوغين.

هي: وأنت؟ ألست عربياً؟

هو: بلى.

هي: والآن تتنكّر لهم؟

هو: ذاك زمن مضى.

هي: لست متفقة معك. الإنسان الأصيل هو...

هو: (يقاطعها): من يحتفظ بمعدنه، أعرف. أعرف.

هي: (تضيف غير عابئة): ولا ينسى أنه محكوم...

هو: (يقاطعها): بالعودة إلى جذوره الأولى، أعرف. أعرف.

هي: (تواصل): ويظل دوماً وفيّاً...

هو: (يقاطعها): للمبادىء السامية التي يؤمن بها...

هي: (تقاطعه مواصلة): ويدعو إليها...

هو: (يضيف): ويضحّي من أجلها، أعرف، أعرف، أعرف، يا لك من حكيمة! يا لك من ديوجينة صغيرة، جميلة ورائعة في فستانك هذا. بكم اشتريته؟ قولي. إنك تشبهين تلك الممثلة التي تعشقينها وتقلدينها في كل شيء. ذكريني باسمها، لقد نسيت...

هي: (غير عابئة): آقا غاردنر...

هو: أجل. هو ذاك، لم أكن أتصور يوماً إنك ستتحولين إلى فيلسوفة عندما تتعدين عتبة الأربعين.

هي: أما أنت، فلم أكن أعتقد أن بلوغك الخمسين سيحولك إلى ما أنت عليه.

هو: ماذا تقصدين؟

هي: أنت رجل لا يطاق.

هو: عجيبة!

هي: وبلا بوطة في هذا الكون.

هو: وماذا بعد؟! هيا. قولي. حانت فرصتك التي تنتظيرينها دائماً.

هي: ماذا تقصد بدورك؟

هو: لا شيء، لا شيء، لا شيء.

هي: لا شيء؟

هو: لا شيء!

هي: إذن، سأقول أنا.

هو: قولي، قولي، اطلقي لسانك السليط.

هي: لساني!؟

هو: نعم. لسانك.

هي: ما شأنه لساني؟

هو: لسان أفعى سامّة.

هي: إنك خرفت.

هو: لسان أفعى سامة يتحرك ليل نهار ويبحث في كل حين عن ضحيته.

هي: إنك خرفت، خرفت.

هو: ويلدغ أقرب الناس إليه.

هي: إنك خرفت وبدأت تفقد زمام نفسك. بدأت تفقد ذلك...

هو: (يقاطعها هازئاً): القبس السحري الذي شدك إليّ..

هي: لقد بدأت أعيش مع صورتين منك.

هو: منذ متى؟

هي: منذ أكثر من عقد ونصف.

هو: تعنين منذ البداية؟

هي: تقريباً.

هو: صورتان مني؟

هي: هو كذلك.

هو: من الأفضل أن تقولي شبحين كما كنت تكتبين في رسائلك إليّ.

هي: عندما كنا منفصلين..

هو: بعد أن ولد ابننا الثاني...

هي: هل تتذكر؟ هل تتذكر كيف...؟

هو: (يقاطعها): كيف التقينا، وكيف تحابينا، وكيف تزوجنا..

هي: (تقاطعه بدورها): ها أنت تسخر مني بدورك...

هو: أبداً. ألا تقولين دائماً من «عاشر قوماً أربعين يوماً...»؟

هي: (تقاطعه): إنك تقلب المعادلات دائماً.

هو: أنت أيضاً.

هي: لست مثلك.

هو: لماذا تزوجتني إذن؟ لماذا عشت وتعيشين معي؟

هي: لأني أحببتك.

هو: والآن؟

هي: دائماً نفس السؤال. و«الآن»؟!

هو: أريد أن عرف.

هي: لست جاهلاً.

هو: الجهل كلمة فضفاضة.

هي: المعرفة أيضاً.

هو: دعينا من كل هذا وقولي الحقيقة. قولي. ماذا تريدين مني؟ ماذا تريدين من رجل أمضى ثلثي حياته يذهب ويجيء كدمية من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل؟ ماذا تريدين من رجل مشدود إلى ربطة عنقه صباح مساء مثل كلب طيّع لم يعد يميز بين عظم حقيقي وعَظم مزيف؟ هل تريدين أن أسألك عن البارحة؟ عن الذي مضى بيننا؟ أنا لا يهمني سوى الآن. الآن فقط. الحاضر. نعم. الحاضر، أما المستقبل فلا شأن لي به. لا رغبة لي فيه. لا رغبة لي أن أعيشه. كل شيء فَقَد طعمه وحلاوته...

هي: (تقاطعه): لكن أنت الآن في المستقبل..

هو: (يقاطعها): هراء. هراء. أنت واهمة. تثقين بخرافاتهم الفارغة. يتحدثون ويتحدثون. يتحدثون عما قطعته البشرية من أشواط ذهبية. العلم. التكنولوجيا. غزو الفضاء. الحرية.

العدل. الإخاء. الديمقراطية. حقوق الإنسان. والآن يلوحون بشعارات النظام الدولي الجديد. هراء. هراء. كذب. هل تدركين؟ طبعاً. إنك لا تدركين. متى كنت تدركين لتدركي الآن؟

هي: ها قد عدنا إلى السخرية مرة أخرى.

هو: أنا لا أسخر منك.

هي: أعرف، ولكنك تسخر من نفسك، وهذا هو الأدهى.

هو: ما الذي يهمك أنت أن أسخر من نفسي ومن العالم كله، ثم لا تسمي ما أقوله سخرية.

هي: هل أقول عنه إنه عين الصواب؟

هو: المهم لا تُسَمّي ما أقوله سخرية.

هي: هل أسميه اعترافاً؟

هو: بماذا؟

هي: بعجزك.

هو: ها أنت تسخرين بدورك مني.

هي: إذا كنت أنت تسخر، فلماذا تمنع الآخرين من ذلك؟

هو: أنا لا أمنع أحداً.

هي: ولكنك تمنعني أنا!؟

هو: أنت زوجتي.

هي: الأمر سيان.

هو: أنت لست «أحداً».

هي: هذا يزيد الأمر تعقيداً.

هو: لماذا؟

هي: لأنك أولاً تلغيني من حسابك وتمنعني أن أكون «أحداً»، ولأنك ثانياً تحرمني من الاختلاف عنك.

هو: أنت لا تبحثين عن الاختلاف، وإنما عن الخلاف ككل زوجة تقليدية.

هي: عدنا إلى السخرية الكريهة.

هو: هل تنكرين أنك زوجة تقليدية؟

هي: أما أنت، فعندما تعجز عن المواجهة تلجأ إلى...

هو: (يقاطعها): المواربة كما تدعين. أعرف. أعرف.

هي: طبعاً. لست المسؤول.

هو: من المسؤول؟ لا تقولي إنها طباعي الموروثة عن أجدادي...

هي: (تقاطعه): أنت تعلم جيداً بأنني لم أحشر يوماً ما أصولك في الحديث؟

هو: وماذا تسمين هذا الذي تفعلينه الآن؟

هي: سامحك الله يا عزيزي سامحك الله.

هو: اتركي الله بعيداً عن حوارنا.

هي: بل قل عن خلافنا.

هو: اسكتي يا امرأة اسكتي.

هي: ها أنت تعلن الحرب.

هو: أنا لا أعلن حرباً ولا هدنة.

هي: مراوغ. مرواغ. مرواغ وجبان.

هو: اسكتي يا امرأة اسكتي.

هي: هيا. اصرخ. قل ما تشاء. لن يسمعك أحد. لن يراك أحد. نحن وحدنا. وحدنا كما قلت في البداية. ألا تتذكر؟ هل نسيت؟ بهذه السهولة؟ عجيب!

هو: يا لك من امرأة...

هي: (تقاطعه): غريبة الأطوار! أليس كذلك؟ إنها اسطوانتك المفضلة عندما لا تجد أمامك ضحية للسانك واتهاماتك الرخيصة.

هو: أنت أكثر من غريبة الأطوار. أنت إبليس في صورة بشر.

هي: من الذي يعود إلى الميتولوجيا الآن؟ أنت أم أنا؟

هو: هل تسمّين الله ميتولوجيا؟

هي: وإبليس، ماذا تمسيه أنت؟

هو: الله شيء وإبليس آخر.

هي: مراوغ. مراوغ. مراوغ في كل شيء وجبان. أنت شيخ المراوغين. وتتحول إلى داهية كلما هدّد أحد سطوتك.

هو: بعد السخرية والمواربة ها أنت تضيفين الوقاحة ونكران الجميل والجحود إلى صفاتك المقدّسة.

هي: لا تتهمني بما لم يصدر عني.

هو: هو ذاك، هو ذاك، يا لخسارتي فيك وفي أيامي معك، المواربة في كل حين.

هي: أنا لست كما تدعي.

هو: طبعاً. طبعاً.

هي: عندما عرفتني لأول مرة كنت لا أتوقف عن الصلاة وشكر الله.

هو: وعندما أحببتني توقفت عن ذلك؟ أنا السبب دائماً. أنا السبب.

هي: هل تعتقد نفسك إلهاً صغيراً من آلهة هذا الزمن المزيف؟

هو: ها أنت تتهمينني بما لم يصدر عني.

هي: هل تمنعني من الدفاع عن نفسي؟

هو: ومن قال إنني إحاربك؟

هي: كل الذي مضى من أيامنا المشتركة.

هو: يا لك من مخلوقة دنيئة!

هي: تشتمني؟ تشتمني الآن؟ يا للهول! زوجي يشتمني!!

هو: إنني أدافع عن نفسي. هل في هذا عيب؟

هي: ضد من؟ ضدي؟ أنا لست دمية اشتريتها في السابق، وها أنت تفعل بي ما تشاء.

هو: عدنا إلى الشفقة والمسكنة.

هي: لن أتنازل عن حقي في أن أكون امرأة وإنسانة.

هو: طبعاً، طبعاً، إنها الطريقة الوحيدة التي تلجئين إليها دائماً عندما تكتشفين حقيقتك.

هي: ماذا تعني؟

هو: كل شيء واضح. جلستك هذه الليلة. طريقة كلامك. عصبيتك. مزاجك.

هي: أنت الذي حولتني إلى ما أنا عليه.

هو: أبداً، أبداً، هكذا كنت دائماً. كومة من المتناقضات.

هي: الصدفة هي التي جعلتني...

هو (يقاطعها): يا لها من صدفة. يا لها من صدفة! امرأة على غير طباع رجل. تلتقي به. يتعارفان، يتواعدان على اللقاء مرة أخرى. تتكرر لقاءاتهما. يتحابان. وعندما يتفقان على الزواج..

هي: (تقاطعه) يفرض عليها أن تتنازل عن...

هو: (يقاطعها بدوره): أبداً. أبداً. أنا لم أفرض عليك أي شيء. أنت حرة. مواطنة حرة في بلد حر. هكذا تقولين دائماً. أليس كذلك؟ لماذا تسمينها صدفة؟ هل يعقل أن تلتقي الصدفة بالحرية؟ قطعاً لا. لقد كان (كامو) خاطئاً. الصدفة حتمية، لا نستطيع خلقها، لأنها هي التي تخلقنا. أما الحرية فهي من صنعنا. نعجنها بأيدينا ونسوّيها. وعندما نعجز عن تقرير قيمتها نسجنها في قمقم المصلحة ونفرض عليها نظرتنا إلى الكون والإنسان والأشياء.

هي: سامحك الله يا عزيزي سامحك الله.

هو: عدنا إلى الله ثانية. لا تسامحني أيها الرب وقد اقترفت إثمَ، معذرة، «صدفة» الزواج بهذه المخلوقة!

هي: سامحك الله يا عزيزي سامحك الله.

هو: كفى يا امرأة ودعينا...

هي: (تقاطعه): ننعم بالحياة! يا لها من حياة! يا لها من حياة!

هو: هل تتنكرين الآن لحياتنا معاً؟

هي: وهل تسمي الذي يحدث بيننا حياة؟

هو: ليست كذلك، ولكنها حياة، حياة تنقصها الحرية بالفعل، ولكنهاحياة رغم كل شيء.

هي: يا لها من حياة! يا لها من حياة!

هو: ألا تروقك حياتنا؟ ألم نتزوج ونبدأ من الصفر؟

هي: (تسايره): ونسكن في أجمل حيّ بالمدينة؟!

هو: وابننا الأكبر يدرس في أمريكا؟

هي: وأخته تريد أن تصبح عارضة أزياء؟!

هو: وابننا الثاني مغرم بالسباحة يريد أن يصير بطلاً قومياً...

هي: (تسايره): يرفع علم بلاده عالياً؟!

هو/ هي:
ألا يكفي هذا؟ ألا تكفي كل هذه الصدفة؟ ألا تكفي كل هذه الصدفة؟!

هو: هيا! قولي! تكلمي!

هي: ماذا عساني أقول؟

هو: قولي أي شيء. قولي كل شيء بقي عالقاً بخبايا نفسك ينتظر الانفجار. قولي. اطلقي لسانك المفوّه.

هي: ليس لدي ما أقوله.

هو: خلاص. جفّت خلايا رأسك العبقري.

هي: ليس لدي ما أقوله.

هو: لست عادلة.

هي: ما دخل العدل هنا؟

هو: لا أعرف، ولكنك تدارين عجزك عن المواجهة بالحكمة ورجاحة العقل.

هي: ليس لديّ ما أقوله. ليس لديّ ما أقوله.

هو: ليس صحيحاً. هذه هي فرصتك الثمينة.

هي: ماذا تقصد؟

هو: تعلمت إثارة أعصابي بكلامك القاسي. تعلمت دفعي إلى الصراخ وفقدان السيطرة على نفسي.

أضرب كل شيء أمامي. أكسر وأمزق ثيابي كالمجنون. هيّا تكلّمي.

هي: ليس لديّ ما أقوله. أنت تعرف كل شيء عن نفسك وأكثر.

هو: لا! بالعكس. أنت العارفة. أنت الحكيمة. أما أنا، فقد سئمت.

هي: أنا أيضاً سئمت.

هو: يا سلام! أنت؟! تسأمين؟! السيّدة سئمت. وأنا؟ ماذا عساني أقول أنا؟

هي: أنت على الأقل تعودت؟

هو: ماذا تعودت؟

هي: تعودت... تعودت...

هو: وقعت؟! لم تجدي ما تقولينه.

هي: أبداً! إنني في كل مرة لا أريد أن ينفرط كل شيء بيننا.

هو: لا. أرجوكِ. لست في حاجة إلى احترامك.

هي: ما الذي يجعلك تحس بأنني احترمك؟

هو: من قال إنني أحس بك؟

هي: أنت كائن غريب. أنت لست بشراً سوياً.

هو: كيف؟ لم أسمعك. ماذا قلت؟

هي: أنت وحش. أنت جيفة.

هو: عدنا إلى الشتيمة.

هي: أبداً. أنا لا أشتمك، ولن أشتمك أبداً.

هو: وماذا تسمين الذي تفعلينه الآن؟

هي: دفاع عن النفس.

هو: ضد من؟ ضدي؟! أنا!! زوجك؟ وتشتمينني فوق هذا وذاك؟!

هي: أنا لا أشتمك، ولكنها الحقيقة.

هو: الحقيقة؟!

هي: نعم، الحقيقة.

هو: الحقيقة الحقيقة الحقيقة.

هي: نعم، نعم، نعم، الحقيقة. الحقيقة. الحقيقة.

هو: عن أية حقيقة تتحدثين؟

هي: عن الحقيقة التي تعرفها وتتجاهلها. عن الحقيقة التي تعرفها وتجهلها. الحقيقة التي لا تعرفها ولا تريد أن تعرفها. الحقيقة التي لن تعرفها ولن أعرفها ولن نعرفها معاً. حقيقتي. حقيقتك. حقيقتنا.

هو: (يقلدها ساخراً): حقيقتي. حقيقتك. حقيقتنا (يتوقف ويضيف ساخراً أكثر): حقيقتكم. حقيقتهم. حقيقتهن. (يتوقف لحظة ويضيف كمن يقلد تلميذاً يستظهر جدول الصرف): حقيقتي. حقيقتك. حقيقتكما. حقيقتهما.

هي (تقاطعه صارخة): كفى. كفى. لقد بدأت تخرف.

هو: من الذي يخرف؟ أنت أم أنا؟

هي: كلانا نخرف. أنت «دوز» وأنا دوز. كلانا نوجد في حالة يرثى لها.

هو: حالة يرثى لها!؟ ماذا تعنين؟

هي: عجيب أمرك يا رجل. لست أدري أي سبيل سأسلكه معك! إنك تتحوّل بقدرة قادر من كائن شرس إلى حيوان أليف يخفي حقيقته. إنها صفة نادرة في أيامنا هاته. لا. بل هي صفة رائجة. لا تظهر في البداية، ولكنها تظل كامنة في طيّات النفس البشرية، وتبرز في شكل قيم راقية باسم الحياة والدفاع عن النفس عندما تدعو إلى ذلك ضرورة ما. الناس مثلك يتسترون خلف أقنعة إنسانيتهم، ولكنهم في عمقهم وحوش. أنت أخطر مما كنت أتصور أن تكون في الأصل.

هو: فلسفة، فلسفة، فلسفة، وإذا شئت الدقة: إنك تخرفين بدورك.

هي (ساهمة): تعتريني أحياناً لحظات أنسى فيها كل شيء وأفكر في كل شيء. أفكر فينا. أفكر في أبنائنا. أفكر في مصائرنا.

هو: دعي عنك المصائر جانباً وفكري في الحاضر. ألم أقل لك دائماً فكري في الحاضر؟

هي: الحاضر لا طعم له ولا أمان فيه.

هو: الحاضر هو كل شيء.

هي: الحاضر عملة كاسدة، ومن يتحدثون عنه سماسرة. كلهم سماسرة.

هو: الحاضر هو أساس كل شيء.

هي: الحاضر يقتل فينا كل إحساس طبيعي باللذة البريئة.

هو: الحاضر هو مقياس الحقيقة التي تتحدثين عنهاوتطالبين بها وأنت لا تدركينها.

هي: يا لي من امرأة تعيسة!

هو: مجتمعك المحنط هو الذي لقنني التعلق بالحاضر والذوبان فيه إلى حد التلاشي. أما أنا...

هي: (تقاطعه): أما أنت، أما أنت (تتوقف لحظة وتضيف): أنت من كوكب

آخر. وحدك تجري في عروقك دماء تغلي من فرط الشهامة والكبرياء. (تتوقف مرة أخرى وتضيف): جئت إلى هنا فقيراً، وجمعت ثروة أكسبتك الشهرة والجاه. أعرف. أعرف. أعرف. أعرف هذا جيداً. إنها إسطوانتك المفضلة الأخرى.

هو: أنت الآن تشتمينني صراحة.

هي (هازئة): كيف! أشتم زوجي؟

هو: ماذا تسمين الذي قلته قبل لحظة؟

هي: أردت أن أفتح عينيك جيداً.

هو: وهل أنا أعمى؟

هي: لقد كنت دائماً أعمى. منذ البداية.

هو: يا سلام! وقحة. وقحة. وقحة.

هي: تشتمني بدورك!؟

هو (هازئاً): كيف؟ أشتم زوجتي؟

هي: لا يهم. تعودت عليك. أنت أعمى. وإذا لم تكن أعمى فستصبح أعمى تقريباً. لا تتعجل. لا تتعجل.

هو: يا له من مصير مريح تتنبئين لي به! أعمى! هكذا. من غير مقدمات ولا نتائج. أعمى. أعمى. أعمى! (ينهار ويبكي).

هي: ماذا سيفيدك أن ترى؟ إنك تملك عينين ولا ترى. لا ترى أي شيء حولك.

هو (بعد وقت وجيز): أما أنت فقد أصبحت زرقاء اليمامة.

هي: من هاته التي تتحدث عنها؟

هو (ساهماً): جدتي. جدتي الي تركتها هناك. بعيداً.

هي: لِمَ تحتمي بالألغاز عندما تعجز عن المواجهة؟ أفصح.

هو: ماذا يفيدك أن أفصح؟ إنك لا تعلمين ولن تعلمي شيئاً ما دمت محنطة في كفنك كالمومياء.

هي: قل ما شئت. قل ما تشاء. لقد تعودته.

هو: (صارخاً): أنا لم أتعود أي شيء، أي شيء.

هي: هيّا. اصرخ. قل كل شيء. تلك عادتك. تعودت عليك. أنا زوجتك.

هو: زوجتي في الظاهر، أما في الباطن فيعلم الله.

هي: ماذا تقصد؟

هو: كل شيء. كل شيء.

هي: يعني؟!

هو: هل تظنين أنني أعمى؟ إنك واهمة وستكونين غبية ألف مرة متى اعتقدت ذلك في قرارة نفسك. أنا لست أعمى. لست أعمى إنني أرى. أرى. أرى. أتفهمين؟ لقد انتهى زمن أوديب. انتهى زمن أوليس. انتهى زمن كل الأبطال، (يتوقف لحظة ويضيف): هل تتذكرين ما كنت تفعلينه مع صديقك؟ أوهمتني أنه كان يأتي ليساعدك على إنجاز أطروحتك التي لم تنجزيها قط. صديقنا. صديق العائلة. كم مرة جئت على حين غرة ووجدتكما تتناجيان في الحديقة. حديقة بيتنا الصغيرة. ذكرتني بها. يعلم الله ما كنتما تفعلانه وراء ظهري!

هي: وأنت؟ تعود متعباً أو تدعي التعب من فرط الشغل، بينما الحقيقة هي ساندرا. أحضان ساندرا. قبلات ساندرا.

هو: هل هذا يعني أن صديقك السابق لم يكن صديقك فحسب؟

هي: وهل ساندرا كانت مجرد ساندرا؟ سكرتيرة عابرة من السكريتيرات اللواتي عبرن في حياتك واحدة بعد أخرى؟

هو: أنا حر.

هي: وأنا أيضاً حرة.

هو: لسنا متساويين.

هي: أهاه!

هو: أنت مسؤولة عن شرف العائلة.

هي: عائلة من؟

هو: عائلتك.

هي: كن مطمئناً.

هو: لم أعد أشعر بأي شيء.

هي: ماذا؟

هو: لم أعد قاصراً.

هي: نعم.

هو: لتحيَ الجبهة! دائماً تحاولين أن تكوني ندّاً لي.

هي: تغيرت يا صديقي، تغيرت.

هو: من أقصى إلى أقصى. من أقصى العداوة والعداء إلى الصداقة! يا له من منطق! يا له من منطق أفعواني!

هي: لم لا؟! أنا أحياناً صديقتك، وأحياناً أخرى...

هو: (يقاطعها): عدوتي؟ أليس كذلك؟

هي: قطعاً لا. لست عدوتك، وإنما...

هو (يقاطعها): وإنما ماذا؟ (لحظة صمت). وإنما ماذا؟ ماذا؟ هيا! قولي.

هي: أنت لا تسمح حتى بحق الكلام، فكيف تطلب مني أن أقول؟! أعطني فرصة.

(لحظة صمت).

هو: هيا! قولي. من الأفضل أن تتكلمي حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه. ماذا عسانا نخسر بعد أن فقدنا كل شيء؟ هيا! قولي.

هي: أنت تجبرني على الصمت، فدعني صامتة، لأنني لم أعد في حاجة إلى أي كلام.

هو: بالعكس. أنت في حاجة دوماً إلى الكلام حتى لا يجف دماغك.

هي: تغيرت يا صديقي تغيرت. تغيرت كثيراً. البارحة فقط كنت أحسن حالاً من اليوم. تغيرت. تغيرت.

هو: تعنين أنني لم أعد مستسلماً لأهوائك وشهواتك. تعنين أنني بدأت أعي كل ما تفعلينه بي. تعنين أن...

هي (تقاطعه): أنت تقسو علي وعلى نفسك كثيراً.

هو (صارخاً): لم أعد أطيق. إنني دمية في يديك. في يد الشركة. لعبة في يد ابنك. لعبة في يد من تسمينهم «أصدقاء» أو «حلفاء». إنهم حفنة من الدجالين الذين يحومون حولنا معاً لاسقاطنا في شبكتهم والإجهاز علينا مثلما يفعل كل قناصي اللحظات الحاسمة. إنهم كمشة من الوصوليين الذين لا يهمهم من أمري وأمرك سوى تحقيق أحلامهم. لقد مللت. مللت هذه المسخرة. أريد أن أسترد إنسانيتي.

هي: من الذي يمنعك من استرداد إنسانيتك؟

هو: أنت.

هي: أنا؟!

هو: نعم. أنت. مَنْ سواك؟

هي: ما شأني أنا إذا كنت أنت قد فقدت إنسانيتك؟!

هو: وأنت؟ هل تتوهمين أنك سويَّة؟

هي: أنا لا أدعي شيئاً.

هو: طبعاً، لأنك تملكين كل شيء، ولا يهمك زوجك.

هي: بالعكس. أنت تهمني.

هو: فقط عندما تكونين في حاجة إليّ.

هي: وأنا أيضاً، لا أهمك إلا بمقدار ما تزين بي الواجهة. تضعني فيها ليقول عنك الأصدقاء حلو كلامهم.

هو: أنت أيضاً، ليقال عنك بأنك سيدة بيت مثالية.

هي: نحن متساويان إذن.

هو: أنت الآن في حاجة إليّ أكثر من أي وقت مضى.

هي: ماذا تعني؟

هو: ألم تكتشفي بعد أنني قاب قوسين أو أدنى من الخراب؟

هي: وماذا بعد؟

هو: أنت مستفيدة على كل حال.

هي: أفصح.

هو: وهل بقي شيء يحتاج إلى إفصاح؟

هي: سامحك الله يا عزيزي سامحك الله.

هو: اتركي إلهك جانباً.

هي: سامحك الله يا عزيزي.

هو (غاضباً): لست عزيزك. لست عزيزك. يكفيني ما أقاسيه منك ومن عائلتك ومن كل الناس حولي.

هي: تغيرت كثيراً يا صديقي.

هو: تغيرت. تغيرت. تغيرت. أسطوانة رديئة. إنك تذكرينني بشهادتك عني أمام لجنة التحقيق. لقد قلت لهم نفس الكلام. «تغيرت». واستعملوه ضدي.

هي: سامحني. أخطأت في حقك. عفوك يا سيدي.

هو: دائماً أنت هي أنت. لا تتغيرين وتلجئين إلى افتعال النبل وأنت أفعى سامة.

هي: وأنت تنّين. تريد أن تحرق كل شيء حولك بعد أن أحرقتني في قرارة نفسك.

هو: نحن إذن متساويان.

هي: حولتني إلى رماد، إلى ركام من البقايا التي لم تعد تصلح لشيء. أهملت حتى فراش الزوجية.

هو: لست مسؤولاً عما يحدث.

هي: لكنك موجود في اللعبة. أنت أيضاً أفعى وأعرف ضحاياك.

هو: ألم تقولي إنني تنين قبل قليل؟

هي: نعم. إنني أعرف ضحاياك. تخلصت منهم واحداً واحداً وتريد

أن تقتلني أنا أيضاً. إنني أعرف لعبتك الحقيرة وأعرفك جيداً.

هو: تتجسسين عليّ؟

هي: ما شأني أنا بأسرارك خارج هذا البيت؟

هو: ولكنك تعرفيني عني كل شيء!!

هي: كنت فيما مضى أشبّهك بملاك، وكنت تستشيرني في كل شيء يعرض لك. أما الآن فقد أصبحت حاذقاً، تعرف ألف دسيسة ودسيسة، وكأني بك عاشرت كل اللصوص والقراصنة والمخبرين.

هو: هذا من فضلك. أنت ساعدت غرمائي على افتعال كل تلك الضجة لتجميد أموالي ومشاريعي. بل إنهم أقنعوك بالتخلص مني، فرضخت لهم بعد أن وعدوك بنسب من الأرباح. اتخذوا كلامك حجة لأدخل إلى المصحة، ويلفّق ضدي مرضي النفسي.

(لحظة صمت).

هو: أراك صامتة. هيا. تكلمي. قولي.

هي: إنك تخلط الأوراق يا سيدي.

هو: عليّ وعلى أعدائي وأنت رأس الحربة. لو كان الأمر بيدي لتخلصت منك.

هي: ماذا تنتظر؟

(لحظة صمت).

هو (ساهماً): ألا تفهمين يا غبية؟! ألا تفهمين؟ أقتلك وتموتين وأحاكم أو أحمل إلى الكرسي الهربائي وقد أشنق في أحسن الأحوال، ويكسبون هم كل شيء، بل حتى أبناؤنا لن يرثوا أي شيء سوى الفضيحة والعار. قيل «أبناء من»؟ قيل: «أبناء رجل شنق زوجته من أجل... من أجل...» من أجل ماذا؟ ساعديني. من أجل أشياء غامضة لا يعلمها أحد سِوانا. ما رأيك يا سيدتي. الحكيمة؟ قولي.

(لحظة صمت).

هي: خيال خصب يشبه تلك القصص التي ما فتئت تغرق نفسك فيها عندما تسجن نفسك وحدك في البيت وتجلس ساعات طويلة أمام صندوق أخرس تتفرج على نفسك في شخصيات المافيا والمخدرات والدسائس. لقد تحولت إلى قاتل موقوف التنفيذ، وبدأت بقتل نفسك وقتل كل شيء فيك.

هو: ماذا تركت لي غير هذا الهامش؟!

هي: لست مسؤولة عن عزلتك يا سيدي. أنت الذي اخترتها تهرباً من مواجهة الحقيقة.

هو: عدنا إلى الحقيقة مرة أخرى.

هي: وماذا تسمي عزلتك هاته؟ إنها ليست حلاً ولا طوق نجاة ينجيك من الغرق.

هو: لست مسؤولة عني. أنا الوحيد المسؤول عن نفسي وعن اختياراتي.

هي: صدقت، لكن لا حق لك في مثل ما تفعله الآن. معي. مع الأولاد. مع كل الأصدقا الذين يحترموننا ويتعاطفون معنا.

هو: أفضِّل أن أتجنب النار على أن أعيش وسط لهيبكم الحارق.

هي: أنت الذي خلقت هذا الذي تسميه ناراً.

هو: أنا. أنا. أنا. دائماً أنا. وكأن من هم حولي كلهم ملائكة. ألم تقولي أنت بنفسك عني إني تنّين؟ يا لي من رجل تعيس. يا لي من رجل تعيس.

(لحظة صمت).

هي: إنك تبالغ في تعذيب نفسك وتعذيب من حولك.

هو: خير لي أن أعذب نفسي من أن يعذبني الآخرون.

هي: إذن، عذب نفسك ما تشاء. أما أنا فلن أسمح لك بأن تسير بي إلى الهاوية.

هو: أنانية. (يتوقف ثم يضيف: أنانية. أنانية. أنانية. (لحظة صمت).

هي: أنت هو الأناني. ألا تنظر إلى نفسك مرة في مرآة نفسك؟ مرة واحدة فقط.

هو: نفسي تهشمت وتتهشم كل حين، وتتهشم معها كل عناصر شخصيتي التي كونتها. تتهشم نفسي وأتهشم بحضوركم بفضل أريحيتكم في خلق المستحيل من أجل إزعاجي برغباتكم الطفيلية ومطالبكم التي لا تنتهي. تريدون كل شيء هكذا. مجاناً وبدون بذل أو تضحية وصبر. تريدون المال. تريدون الراحة والاستجمام. تريدون السعادة. تريدون النجاح في الحياة وضمان المستقبل على حسابي، ولم يتساءل أحد منكم يوماً: ألا يحق لإنسان

مثلي، في مثل وضعيتي وحالي أن يستريح؟

هي: ها قد أصبحت أنانياً بدورك.

هو: أنت دائماً تعاكسينني، وحتى عندما تظهر تلك الحقيقة التي تدعين البحث عنها، فإنك تنهبينها، وتحولينها لحسابك الخاص. من هو الأناني فينا؟! هيا. قولي. تكلمي.

(لحظة صمت).

هو: أراك صامتة. صامتة كقطعة ثلج. ماذا دهاك؟

هي (بعد مهلة): ماذا عساني أقول؟!

هو: أهاه! لا تجدين ما تقولينه؟! كيف؟ هذا غريب. نضب معينك؟ جفت قريحتك؟! هيا. تكلمي. كفاك تصنعاً. تكلمي أيتها الماكرة. قولي. قولي أي شيء.

(لحظة صمت)

هو: يا لبرودتك وبرودة روحك وعاطفتك. (يتوقف قليلاً ويضيف): هذا إذا كانت قد بقيت لديك روح وفضلت عاطفة.

هي (بعد مهلة): ألا ترى يا سيدي أن برودتي أفضل لك؟

هو: ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟

هي: من الأفضل لنا أن نخلق نوعاً من التوازن لننعم بالحياة.

هو: لم أفهم! ننعم بالحياة؟

هي: إذا كنت أنت تتّيناً تحرق الناس بلهيبك القاتل وتدمرهم، يستحسن أن أكون أنا على عكس ذلك، على الأقل لنقنع الناس من حولنا بأننا سَوِيّان ونشبه كل الآخرين.

هو: تعنين لنقنع الناس بغير ما نحن عليه في الحقيقة؟

هي: وما دخل الحقيقة هنا هذه المرة؟ إنني لا أفهمك، كلما حاولت أن أجد أي تبرير لما يجري الآن بيننا في انتظار ما سيحدث بعد أيام قليلة لكي نواجه معاً، يداً في يد، طبعاً، أمعنتَ في الالتواء والتلون. ساعدني يا أخي، ساعدني بربك ولو مرة. إنني لن أستطيع المواجهة وحدي، وكما شبكناها معاً، علينا أن نفكها معاً. أليس كذلك؟

هو: (بعد مهلة): أنت داهية. لو كنتِ زوجة رجل سياسة لما استغنى عنك أبداً.

هي: أنا ككل الناس، ومن حقي أن أمنح لنفسي معنى في هذا الكون، وأن يكون لي رأي.

(يسود الصمت).

يرن الهاتف ولا أحد يرد).

هو: لماذا لا تردين؟!

هي: دعه يرن. لا شأن لي به.

هو: قد تكون أمك أو أختك، بل قد يتعلق الأمر بصفقة تعقدينها خلف ظهري.

هي: اتصالاتي محدودة، ولست أوزع علاقاتي يميناً ويساراً.

هو: هل أفهم من هذا أنك حريصة على فعل كل شيء كما يجب في السر؟ هل أفهم أنك غيرت طريقتك في التعامل مع الناس؟!

هي: افهم ما تشاء وكما تشاء. لا شأن لي بوجهة نظرك الآن.

هو: أنت داهية. هل تعلمين؟ أنت داهية. داهية.

هي: منك تعلمت، وفي ظلك أدركت أن كل شيء قد يؤول إلى زوال وينتهي في رمشة عين. ينهار. هكذا. فرررر. مثلما تنهار قصور الرمال. ينفجر مثلما تنفجر فقاعات الصابون وتتبخر. ماذا تريدني أن أصنع بعد كل الذي حدث؟

هو: يا لك من حكيمة! يا لك من حكيمة!

هي: بل قل يا لي من مجنونة تحول جنونها إلى قوة قبل الخراب؟! ماذا تريد مني؟ تريدني أن أبقى مكتوفة اليدين أمام ما يحدث؟! تريدني أن أستسلم وأتركك تخرب بيتي؟ هيا. قل. منذ فترة وأنت توجه أصابع الاتهام إليّ وإلى الآخرين وتنسى نفسك؟؟ لست بريئاً. لست حملاً كما تدعي. أنت ذئب بدورك ولا ثقة فيك، لأن لا أحد يدرك ما يجري في قرارة نفسك ويدور في رأسك. تدّعي الضعف والبؤس والهزيمة، وأنت قوي في سرك وتريد أن تهدّد الآخرين ليكونوا دائماً تحت رحمتك. تتحكم في مصائرهم وأعناقهم وتقودهم إلى المذبحة مستسلمين. مقتنعين بذنبهم وهم أبرياء. إنها لعبة مكياڤيلية تقوم بها في الخفاء، ومن سواي يستطيع الكشف عنها؟! إنني الضحية الأولى، ولا أريد أن أظل ضحية لك باستمرار تتدرب معي لمواجهة الآخرين، وتعلن في النهاية، أو كلما انتشيت بلذة انتصارك، عن هزيمتك

المصطنعة، بينما أنت الرابح في كل شيء.

(يسود الصمت قليلاً).

يرن الهاتف مرة أخرى.

يستمر الرنين.

تنهض هي وتقفل السكة.

يسود الصمت).

هو (بعد مهلة): ماذا سنصنع الآن؟

هي (بعد مهلة): نستعد لاستقبال ابننا القادم بعد ساعات قليلة.

هو (بعد مهلة): ماذا سنقول له؟

هي (بعد مهلة): لا شيء.

هو: ولكن الجرائد والمجلات نشرت الخبر؟

هي: لا يهم. إنه يعرف كل شيء الآن، وبإمكانه أن يتصرف برزانة.

هو: أراك تتكلمين عنه بثقة تامة؟!

هي: أليس ابني؟ ألست أمه؟

هو: صحيح، لكنه كان بعيداً ولا يعرف التفاصيل!

هي: دع الأمر لي. أنا أمه وأعرف كيف أقنعه.

هو: وهل يستطيع أن يتحمل مسؤولية كل شيء؟

هي: إنه قوي وعاقل.

هو: سنرى.

(يسود الصمت قليلاً).

هو (بعد مهلة): أخاف أن يتأثر بما يجري الآن فيعود من حيث أتى.

هي: على أي حال، لن نخسر شيئاً. إذا أراد فهو ذاك، وإذا لم يرد، فلننظر الأمر مع ابننا الثاني.

هو: هذا غير معقول.

هي: لماذا؟

هو: إنه لم يبلغ بعد سن الرشد.

هي: وما الذي يمنع أباً من توكيل ابنه على أملاكه؟ ولو صورياً!؟

هو: هذا صحيح. هذا صحيح.

(يسود صمت).

هو: يظهر من كل هذا أنك رتبت كل أمورك جيداً. أليس كذلك؟

هي: مجرد حذر واحتياط.

(يسود صمت).

هو (بعد مهلة): نسيت أن أخبرك بأمرٍ هام.

هي (بعد مهلة): ما هو؟

هو (بعد مهلة): نسيت أن أخبرك يا سيدتي بأنني لن أستطيع توكيل ابننا، ولا توكيل أي أحد.

هي (بعد مهلة): لماذا؟

هو (بعد مهلة): لأنني لم أعد أملك شيئاً.

هي (بعد مهلة): لا تقل بأنك وهبت لها كل شيء؟

هو (بعد مهلة): من هاته التي تتحدثين عنها؟

هي (بعد مهلة): ساندرا؟ من سواها أعني؟

هو: ساندرا! ساندرا انتهت بالنسبة إليّ. ساندرا انسحبت.

هي: من إذن هاته المحظوظة التي استولت على كل شيء؟

هو (بعد مهلة): الدولة. (صمت). الدولة. الدولة أخذت كل شيء وتركتني عارياً. الدولة حارسة حدائق هسيريس. حارسة الذهب. ألا تقولين عني إنني تنّين؟! الدولة هي التنّين الأكبر.

(يسود صمت).

هي (بعد مهلة): وتريدني أن أصدق؟

هو (بعد مهلة): صدقي أو لا تصدقي. لا يهم، انتهى كل شيء. فات الأوان.

هي (بعد مهلة): لم أكن أتصورك يوماً بهذا القدر من المكر والخديعة.

هو (بعد مهلة): إنني أشعر براحة كبيرة.

هي (بعد مهلة): ما دام الشيء بالشيء يذكر، فاعلم يا سيدي التنّين أنك وحدك الذي تخرج بخفي حنين في هذه القضية.

هو: كيف؟

هي (بعد مهلة): أنا الدولة التي تتهمها.

هو: كيف؟ لم أفهم؟

هي: هل تتصورني غبية لأترك الدولة تنهب مكاسبي وتضعني مثلك تحت رحمتها؟

هو: لم أفهم بعد! أنيري الطريق.

هي: وهل أنت في حاجة إلى من ينير طريقك؟ لقد رتبت أموري قبل أن تتحرك الدولة وتأتي على الأخضر واليابس.

هو: ماذا تقصدين؟

هي: الدولة التي تدعي أنها تركتك عارياً دولتان، دولة معك ودولة معي. وكما راودتها عليّ فقد راودتني

عليك. تقبض بيد وتقبض بيد أخرى.

(يسود صمت).

هي (بعد مهلة): هيه. ما رأيك؟

هو (بعد مهلة): لم أكن خاطئاً. منذ البداية وأنا أشك، والآن تحوّل الشك إلى يقين. لقد تآمرت منذ وقت بعيد علي. هذا ما كنت أحس به منذ البداية. هذا ما كنت أثبته ثم أنفيه وأطرده من دماغي. أنت داهية. لم يكذب ظني. أنت داهية. (يتوقف قليلاً ثم يضيف): والآن؟! ماذا سنصنع الآن؟ قولي. تكلمي.

(تظل صامتة لا تحرك ساكناً).

هو: لقد قمت بدورك باتقان. براڤو. يا لي من مخلوق ساذج! يا لسذاجتي! أنا الذي كنت أعتقد أنك لا تحركين دجاجة من على بيضها كما يقال! أنت؟ أنت؟ بنت الحسب والنسب ؟ بهذه الحقارة؟ بهذه العفونة؟ بهذه الجحيم؟ ثلاثون سنة من الزواج وأنت تلعبين لعبتك القذرة! من يسير بالآخر إلى الهاوية؟ من؟ من؟ قولي. تكلمي.

(لا ترد).

هو: الآن أستطيع أن أنصرف إلى المصحة في هدوء. الآن فقط أستطيع القول بأنني كنت دائماً على حق. الناس حولي وحوش. دجالون. أفّاقون. قتلة. وأنت رأس الحربة. أنت. ماذا عساني أربح لو وضعت حداً لشرّك؟ إنك جنية بِسَبْع أرواح، ومهما حاولت الإجهاز عليك فستقومين مرة أخرى من قبرك في صورة أخرى وتفترسين العالم. يا لي من مخلوق ساذج ومتخلف! يا لسذاجتي وقلة عقلي! هل كان علي أن أنتظر كل هذا الوقت لاكتشف حقيقتك؟! هل كان علي أن أقضي كل سنوات عمري الذي مضى لأهتدي إلى الحقيقة؟ يا لخسارتي فيك وخسارة أيامي معك! يا لتعاستي وخرابي! (ينهار. يسعل. يشتد سعاله. يتشنج. يمد يده إلى كأس ماء. يحاول إمساكها. ترتجف يده. تسقط الكأس. يسود الصمت).

هي (بعد مهلة): هل أحضر لك الدواء؟

(يسود الصمت).

هي: أتريد الدواء؟

(لا يرد).

هي: هل أدعو الطبيب؟

(لا يرد. ينهض. يمشي متثاقلاً. يخطو قليلاً. يستدير. ينظر باتجاهها. يتأملها صامتاً. يرتدي معطفه. يسوي ربطة عنقه. ينسحب وتبقى هي وحدها).